

## العادات والتقاليد

اصليها - تأثيرها - افسارها - تطورها - امدها

بقلم مند خاطر

والتقاليد كلمتان يشذ احدهما الى الاخرى رابط . معنوي يكاد  
 العادات يجملها في حكم الكلمة الواحدة ، بحيث يصح القول ان كل  
 عادة تقليد وكل تقليد عادة .

ولعل في هذا ما يبرر اتخاذهما عنواناً لموضوع واحد تعالجان فيه معاً معالجة  
 كثيراً ما يتسامح فيها بنسبة ما يقال عن هذه الى ما يقال عن تلك ، وفي  
 تعريف كل منهما ، وما تدلان عليه من معينين متقاربين متداخلين بياناً لزيادة  
 فيه لمستزيد .

ما هي العادة ؟

فالعادة لفظة مشتقة من العود . يقال عاد فلان الى كذا اي صار اليه ،  
 ورجع ، وارتد بعد ترك .  
 وقد يراد بالعود مطلق الصيرورة ، فيقال عادته اي انتابه وبداه تانياً  
 وصيره عادةً .

والعادة هي الدين والدأب ، سُئيت كذلك لان حاجبها يعاودها اي يرجع  
 اليها مرة بعد اخرى .

ومنهم من عرفها باستمرار الناس على حكم المعقول ، وعادوا اليه  
 تكررآ ، ويراد بها هنا ما استقر في النفوس من الامور المتكررة المقبولة  
 عند الطبائع السليمة .

ويقول العامة من اللبنايين : العادة طبيعة خاصة ؛ ذلك لان الطبائع في

عرف الاقدمين اربع : « الحرارة ، والبرودة ، والرطوبة ، واليوسة » وقد نسبوا اليها التحكم في الاجسام تحكماً لا غنى عنه ، لان فيه قوامها ، وجمالها العادة خامسها بمعنى اشتغالها على مثل ذلك التحكم .

اما الافرنج فيقولون : « العادة طبيعة اخرى » والكلمة اساساً لارسطو ، وهي على ما فيها من مباينة للكلمة الاولى في الظاهر ، تكاد تلتقي وايها ممنوناً على صعيد واحد ، لان الطبيعة هي الكون وما وضع له من نظم لا يجيدُ عنها ، فاذا قيل : « ان العادة طبيعة اخرى » كان المعنى انها كون اخر يتحكم في الاجسام ، وهو ما جاء في العبارة الاولى نفسه سواء بسواء .

العادة في امثال العامة :

ومن امثال العامة في العادة ، وهي فلسفتهم الشعبية الخاصة المعربة عن اسلوبهم في النظر الى الامور ، قولهم : « عاده في البدن لا يغيرها الا الكفن - كل شي عاده حتى المباده - العاده بتقطع خريزة البير - كل بلاد ولها زبي وكل شجرة ولها في - من غير عادته يتقل سعاده - كل عمرك يا زبيبه في قفاك عود - كل عمره ها الحد مود على ها اللطه - اللي مود على خبزاتك كلما شافك يهز زناره - يا مود لا تبالي ... - عود جسدك على ثوبين ، ولا تود بطنك على رغيين ... » وما الى ذلك من اقوال شعبية تدل على تحكم العادة تحكماً يصعب الافلات منه

المادة في اقوال الشعراء :

وللشعراء في العادة ابيات متناقلة نذكر منها :

ان للعاده سراً	طبه ضرراً وضم
فيها للبصر خفض	وجها للبصر رفع
وهي بالتكرار تخال	زانه بالفضل وضع
فلذا الامثال قالت :	« عاده الانسان طبع »

وقال آخر :

عود لسانك قول الصدق تحظ به	ان اللسان لما عودت متباد
موكّل بتقاضي ما سفت له	في الجير والسر فانظر كيف ترواد

وقال غيره :

عادة الانسان سلطاناً على  
وقدواه كجنود بل  
.طلق الحكم على الطمع اعلى  
خدمته ويو نال البلى

وقال الفرزدق :

وانت امرؤ عودت للجد عادة  
وهل فاعل الا بما يتورد

وقال المتنبي :

لكل امرئ من دهره ما تودا  
وعادة يفتح الدولة الطن في العدا

تعريف التابيد :

اما التقليد فمن قلد المرأة فلاة اي جعلها في عنقها ، وهي متابعة  
الانسان غيره فيما يقول وما يفعل من غير نظر وتأمل في الدليل ، كأن هذا  
التابع جعل قول الاخرين وقولهم فلاة في عنقه وأحكم ربطها فيها احكاماً  
بليغاً حتى تكاد لا تفارقه .

وفي تعريف آخر حدد التقليد بكونه كل ما يقلد فيه المرء من تقدموه  
جيلاً بعد جيل ، في شؤون اتصلت اليه منهم بالمثل او الحديث خلواً من اية  
شريعة مكتوبة او قانون مـسـطور .

والتقليد عند النصارى واليهود هو ما تسلموه وتداولوه من تقائدهم وشعائر  
دينهم ، خلفاً عن سلف ، جيلاً بعد جيل ، مما لم يدون في كتبهم المنزلة .  
وفي تداول التقليد سواء أكان قولاً ام فعلاً عرّد اليه ، ومن هنا نشأ ما  
يربط العادة بالتقليد ويسهل على الباحث بحثها .

والتقليد عند العامة هو تشبه الاصاغر بالاكابر على غير مقدرة واهلية ،  
ويضربون على ذلك مثلاً التراب الذي راح يقلد مشية الحجل ، فلم يتقنها  
ونسب مشيته الخاصة فبات حاله ، وهم ييمرون في ذلك الى توقع مثل هذا  
المصير لكل ضعيف يحاول التشبه بقوي ، في حين لا شيء لديه من وسائله  
ومقدراته .

وقد نزلهم احد الشعراء. قصة اوله الغراب تلك في ابيات شعرية ذهبت  
في شهرتها مذهب المثل وهي هذه :

ان الغراب وكان يثني مشياً      دبا مضى من سالف الاجيال  
حد النظاة ودام يثني مشياً      فاصابه ضرب من المنال  
فاضلاً مشبته واخطأ مشياً      فلذاك سوره ابا مرقال

الملكات والاخلاق :

ويتفرع من العادات والتقاليد الملكات والاخلاق ، فكل عادة يطول  
الاستمرار عليها تسمى « ملكة » ، لانها تمتلك الارادة بما يجدنه تكرارها  
في الدماغ من اثر لا يسهل محوه .

والملكة صفة راسخة في النفس تكسبها هيئة خاصة بسبب فعل من  
الافعال ، ويقال لتلك الهيئة حالة نفسية ما دامت عرضة للزوال ، فاذا  
تكررت ومارستها النفس حتى ترسخ فيها اصبحت ملكة ، وبكلمة اخرى  
اصبحت عادة وخلقاً . والخلق من معانيه المادة والسجية والطبع ، وهو في عرف  
العلماء ملكة تصدر بها الافعال بسهولة اي دون اي اجهاد او اعمال زوية .  
ويراد بعلم الاخلاق علم حسن السلوك

تأثير العادات والتقاليد :

وللعادات والتقاليد تأثير كبير وفاعلية ممتازة في حياة الامم والافراد ،  
لانها تقوي في المرء شعوره بما يربطه بوطنه وقومه وبيئته من علاقات ، وتنبه  
احساسه الى واجبه في التعاون مع اخوانه على ما فيه خيره ومصالحته ، وتدفع  
المجتمع الى التنظيم والتناسق في الحركة والاتجاه والاضاع ليثني الجميع على  
نظم واحد في التفكير والعمل ، ويسيرا الى اهدافهم على شكل ثابت لا  
يطرأ عليه تبديل اقتداءً بسلافهم ، مما يربط ماضيهم بمستقبلهم ويحلمهم على  
الاتعاظ بما سر بهم ، ليقبوا منه ما يحتاجون اليه في غدهم تحمينا حالهم ،  
واصلاحاً لميشتهم ، وعلى ذلك اذا ترقت العادات وجملت كانت من اخمن الذرائع  
للرقي والتقدم .

## اقسام العادة :

والعادة اقسام يتميز بعضها عن بعض بما يقوم بينها من تباين في المصدر والاثر والغاية ، ومن علماء النفس من بالغوا في تعداد هذه الاقسام ، والمأثور قسماً الى :

- ١ - بسيطة ومركبة
- ٢ - الجبائية وسلبية
- ٣ - جسدية ونفسية
- ٤ - فردية ودينية واجتماعية
- ٥ - مزاجية واكتسابية

## العادات البسيطة والمركبة :

تكون العادة بسيطة فيما اذا حصلت بمركبة واحدة لا يرافقتها غيرها ، فاذا تعددت الحركات وتباينت دراكماً اصبحت مركبة . مثال ذلك : احتياد سائق السيارة سوتها فان عمله يستدعي عدة حركات تتم معاً ، من مثل تحريكه المقود بيده ، وضغطه على اللجام برجله ، ونظاره الى الطريق بعينه ، ونجدته الى الركاب بلسانه ، فان كل حركة من هذه الحركات تعد عند التحليل عادة بسيطة او مفردة ، فاذا ضمت كلها معاً وجمع بعضها الى بعض اصبحت مركبة وهي المقصودة هنا . واكثر العادات هي من هذا النوع المركب لان المرء يكاد لا يأتي واحدة منها الا وقد اشترك فيها غير واحدة من قواه العقلية والجسدية بمحركات كثيرة ، وعلى وجوه متباينة ، تجعلها مصداقاً للتركيب والتأليف .

يشمل على ذلك دورة الجندي على قدميه ، فان حركته على بساطتها تبدو عند التحليل مركبة من عدة حركات ، تمازجت القوى العقلية والجسدية على اتقانها . ومن اخص القوى الجسدية الرجلان ، فان كلاً منهما عمل على حدة في اول الامر ، وبعد ذلك اشتركا معاً ، ويقاس على هذا غيره من اعمالنا ، وهو كثير لا يمكن حصره .

## العادات الإيجابية والسلبية :

تدعى عادة الإيجابية تلك التي تستدعي منا عملاً ذاتياً يصدر عن قوانا الداخلية ، نحو ما نباشره كل يوم من أعمالنا المثلية والهيبة والفنية ، وهو كثير نكتفي بالإشارة الى بعضه على سبيل المثال :

من ذلك اعتيادنا الاغتسال عند صبيحة كل يوم ، وارتداء الملابس ، وتناول طعام الافطار ، والتحول الى مباشرة أعمالنا أياً كان نوعها .

اما السلبية فتلك التي لا يستدعي جهداً ذاتياً ولا حركة شخصية داخلية ، ولكنها تتم ببعض تأثيرات خارجية ، مثاله : ان نتعود العيش في المناطق الحارة او الباردة ، او نألف نوعاً خاصاً من الاطعمة الحريفة او السامة ، او ندمن تناول الكحول حتى القوية منها كالوسكي والفودكا ، او المنبهات كالتبغ والكوكايين ، او نطيل الإقامة في بيئة اجتماعية خاصة كالمستشفيات ومصانع العقاقير الطبية ، ونمتاد تحمل ما فيها من دواعي المضايقة والازعاج .

## العادات الجسدية والتنفسية :

العادة الجسدية هي ما كانت متعلقة بالجسم : كالطعام ، والشراب ، واللباس ، والنوم ، والتدخين ، وما لكل انسان من اسلوب خاص في السير والجلوس والنهوض والتحدث ، وما يرافق ذلك من اشارات وحركات .

والعادة النفسية ما كانت متصلة بقوى النفس : كالصدق ، والكذب ، والامانة ، والحيانة ، والحب ، والبغض ، وغير ذلك من العادات الصادرة عن القوى العقلية بالتكرار والتسرن ، وهي تقتضي من اجهاد العقل ما تقتضيه من حركات الجسم ، كتحصيل مختلف انواع العاوم والفنون ومزاوتها .

وللعقائد الدينية علاقتها ايضاً بالنفس ولها اثرها المحسوس في اعمال المرء الباطنة والظاهرة الروحية والمادية الخاصة به وحده ، او العائدة الى علاقاته مع غيره .

وهذان النوعان من العادة يستطاع توحيدهما على اعتبار ان الحركات الجسدية وجدت في الانسان خاضعة للقوى النفسية ، وان الله وهبنا الارادة الحرة لجأماً

نكبح به جماع اعمالنا ، ونعود انفسنا الخضوع للعقل الواجب ان يكون رائداً لنا في كل امورنا .

#### المادة الفردية والدينية والاجتماعية :

وتدعى المادة فردية فيما اذا اختصت بفردٍ وكانت دليل امياله ومظهر طباعه ، وهذه تختلف باختلاف حالة كل انسان وببشئ وطرق اكتسابه ومكانته في دنياه ، مثال ذلك : ما يروى من غرائب العادات في بعض المشاهير من الرجال . منه ما قيل عن هايدن المؤلف الالماني انه لم يكن يقدر على الكتابة الا اذا دخل غرفته ولبس احسن ثيابه وكانت ريشته جميلة وغرفته متقنة النظام تسودها النظافة ، وعن فوكيير المصور الفرنسي انه لم يكن يقوى على اتقان التصوير الا اذا تقاد اسلحته وتمنطق بسيفه على عادة الاشراف في ايامه ، وعن المشرع الشهير كوجاس انه لم يكن يحسن الكتابة الا اذا تمدد مبطحاً على بطنه وانتثرت كتبه واوراقه ما حوله .

والمادة الدينية هي ما تبحث بما له علاقة بالدين وشؤونه على اختلافها ، اخص ذلك ما تعلق باحتفالات الاعياد وتذكارات المواسم الدينية عند كل طائفة مع ما فيها من رموز ومعاني .

والمادة الاجتماعية هي ما استعملها المجتمع في امة او اقليم او في المصدر عامة ، مما اتفق عليه الناس وألقوه اما بدافع المصاحبة او العقيدة الانسانية او ظروف الزمان والمكان ، واكثر ما يجري ذلك بطريقة المتابعة لمن تقدمونا واورثونا عاداتهم فتلقفناها عنهم في الغالب دون فحص او ترؤر . مثال ذلك : ما عند كل امة من عادات وتقاليد يسلم افرادها بانها من اختصاصاتهم ، وار كانوا لا يستعملونها هم بانفسهم ، من هذا الشرع ما عندنا نحن معشر اللبنانيين من عادات اطلاق النار عراضة في الاعياد والاعراس والمآتم ، وما الفناه من الطرق في رقص «الدبكة» ، و«شيل القيمة» ، واستقبال الضيوف في اية ساعة جازوا ، والالاح عليهم بمشاركتنا في الاكل والشرب والاكتثار منها ولو تضرروا ، الى ما هناك من قراءة القصص ، وحكاية الحكايات في السهرات ،

ورواية اخبار اجس والمدرست ، و . ز . م . ب . با من اتاحيص .  
ومن العادات الاجتماعية ما يتبدل بتبدل الظروف والمجيط واخالة ، مثاله  
ذلك : ان نلبس الملابس الصوفية والاكسية المبطنة الثقيلة ، ونقتار المشروبات  
الكحولية المدفنة في المناطق الشديدة البرد ، ونزدي الغلات البيض . الرقيقة ،  
ونشرب المشروبات والمبردات في المناطق الشديدة الحر .

ومنها ما اعتاده سكان المناطق الاوربية التي يتوافر نزول الثلج فيها من  
جمل سطوح منازلهم على اشكال هرمية ، ليسهل انزلاق الثلج عنها ، فلا  
تتأذى ، بينما نحن سكان المناطق الحارة نصنعها على اشكال مسطحة افقية ،  
لان الثلج في بعضها قليل محمول ، وفي بعضها الاخر معدوم فلا خوف منه عليها .  
اما ما نراه في لبنان من سطوح القرميد المسننة فكالمه حديث مقبوس عن  
الاوربيين ، من باب التقليد والمباهاة اكثر ، ما هو من باب الاضطرار والحاجة .  
يلتحق ايضا بهذا القسم اعتياد الناس في القديم اشياء لم يكن لهم سراها  
لقوام حياتهم ، وقد القوها فسهلت عليهم ونحولنا نحن ابناهم عنها الى ما يفضلها  
من مستنبتات العصر ، فاصبح من الشاق علينا بل من المحال العود الى ما كان لهم .  
كان مثلا جدودنا في القديم يلبسون الطربوش المغربي والدامر او الكوبران  
والدراويل الجلوية او الحامية المصبوغة بالنيل ، ويحتم علينا العصر الجديد  
ارتداء غير هذه الملابس .

وكانوا يسافرون وينقلون على ارجلهم او على ظهور الدواب ، اذ لم يكن  
لهم ما عندنا اليوم من مركبات وسيارات وطرق معتدة مفروشة بالزفت .  
وكانوا يتصبخون بانوار القش وزيت الزيتون والشمع ، اذ لم يكن لهم  
ما جاءتنا به الاختراعات الجديدة من الزيوت النفطية وقناديل اللوكس ثم  
الكهرباء ، وما لها من نعم عديدة كادت تجعل ما كان يحلم به مؤلف الف ليلة وليلة  
حقائق حية مانوسة . ومن الطبيعي ان ابنا اليوم لن يعودوا الى ما كان عليه  
جدودهم ، الا اذا وجدوا في مثل حالتهم ، ولذلك قالوا : « للضرورة احكام ا » .

الر العائد والآراء في العادات الاجتماعية :

اما تبين العادات والاعمال بتبين العقائد والآراء . فثاله : ان الذين يعتقدون بالتقمص والتناسخ والورد الى الحياة قلماً يابھون للموت . ويقال ان نابليون سعى في نشر هذه العقيدة بين جيشه في حملته على روسيا ليحمله على المفاداة والملازمة- في مجابهة الموت ، وان اعتقاد قدماء المصريين بالخلود هو الذي حملهم على تشييد الاهرام قبوراً للموتى ، وعلى استنباط التحنيط الذي حفظ لنا حتى اليوم مومياءاتهم وابقى لنا في دفائنهم ، تلك الكنوز الاثرية نموذجاً لما كانوا عليه من رقي وحضارة .

وان فكرة الاقدمين في بقاء الاقوى ودوس كل ضيف هي التي ادت الى انتشار الاسترقاق والتسخير واستئثار الانسان للانسان ونبذ الفقير والعامل وواد البنات والتضحية بالاطفال ودفن المرأة حية مع زوجها ، الى غير ذلك مما هو في عادات الاقدمين من هذا الطراز ، وقد قضى عليه ما طرأ على الافكار والآراء على توالي الايام من تطورات جديدة .

العادات المزاجية والاكثائية :

ما كانت العادات لتحب مزاجية بالحصر الا من جهة تأثرها بما ركب في المرء من مزاج ، وفطر عليه من طبع وخلق وسليقة ، فان فريقاً من علماء النفس والاطباء والفلاسفة يذهبون الى ان عادات المرء يستند نوعاً وجوهرها مما يتألف منه جسده من عضلات وغدد واعصاب ، ويجري في شرايينه واورعته الدموية من كريات حمراء او بيضاء ، تتكيف بها حركاته وعراطفه واعماله . وهذا ما يسونه المزاج ، وغالباً ما يرث المرء مزاجه عن سلالته ، ولا سيما والديه ابيه وامه ، وبعد ان يبصر النور ينسوقه ذلك المزاج ويقوى بتسايقه . يتناول من غذاء وطعام ويتوافر حوله من اسباب للحركة والقوة ومقومات الحياة ، فاذا ترعرع ظهر فيه ميل خاص واستعداد فطري لهذه المادة او تلك ، ومفعولات هذين الميل والاستعداد هو مما اردنا تسميته بالعادات المزاجية .

ويتسل العامة من اللبثانيين ، تأييداً لمذهبهم في هذه العادات ، يولدين احدها

ابن ملك والآخرون عجري من القوم المعروفين عندما « بالثور » استور امرعم في لبنان ، ضاعا وفي اناء ضياعهما لاذا بكنف رجل تبناهما راكب على تقيفهما معاً على غطر واحد ، حتى اذا شباً تباينت اخلاقهما فظهرت في الاول الصفات الخاصة بالملوك ، من حب الضرب بالسيف ، وركوب الجياد ، وميل الى الكرم والجود ، والسيطرة على الاتراب ، والتحكيم فيهم ، والفصل في ما يقع بينهم من منازعات .

اما الآخر ابن العجري فقد قاده مزاجه الى المهارة في الرقص والننا ، وعمل المناخل وسرقة الدجاج ، مما كان يزاوله ابوه وامه من قبله ، وذلك دون ان يتعرف احد منهما الى ذويه او ان يتصل به اي شيء . عن اصله وفعله .

وبهذا يقول اللامة من اللبنانيين في امثالهم : « الاصل عون - دور الدوره ولو دارت وخذ الاصيله ولو بارت - عليك بالاصيله ولو على الحصيد - الاصل بيعين ولو من جب تين . »

وكثيراً ما سمعتهم يتماثلون في هذا المعنى بقصة جرو ذئب اصطاده راع وضمه الى غنمه فحنت عليه شاة وغذته بجليبها ، حتى اذا كبر استيقظت فيه غريزة الشر والشراسة فبقر بطنها واقترسها فقال فيه الراعي :

بقرت شويجي وفجعت قلبي      وانت لثاننا ولد ريب  
غذيت بدرها ودرت فينا      فن انباك ان اباك ذيب  
اذا كان الطباع طباع سره      فما لبن ببد ولا حليب

ومثلهم هذا لا ينطبق تماماً على العادات المزاجية ، لانه بالشكل الذي اوردناه ، يشير الى الغريزة ، والغريزة تغترق عن المزاج بكونها لا تخضع للاعتياد ، والمزاج يخضع له .

اخص الامزجة :

والامزجة في الناس كثيرة تتبدل بتبدل مظاهر حياتهم الجسدية وانواع بنيتهم واخصباً اربعة : الدموي والليفاوي والعصي والصفراوي .

فيقلب في الاول التقلب في الرأي ، والتسرع في الحكم ، مع شيء من الصلاح وجودة القلب ..

واكثر ما يكون الثاني خامل المهمة ، قليل التأثير ، يلازم اعماله في الغالب السأم والاهمال .

ويعرف الثالث بالذكا ، والنشاط ، وسرعة الخاطر ، ودقة الاحساس . واشهر ما يقال في هذا الصنف انه سريع الغضب سريع الرضى . اما الرابع فينسب اليه حسن الرأي ، والدأب على العمل ، وطول الصبر والناة . ويقال ان اكثر الذين لموا على مسرح الحياة واحصوا بين النوابغ المبرارة كانوا من هذا الصنف .

ام السلات :

وتقسم السلات ايضاً اربعة اقسام :

الاولى البيضاء . او التوقاسية وهي تمتاز بجمل الوجه والسحنة ، وسمة الجين ، وتوازن العينين ، وطول القامة ، ونعومة الشعر ، ورباطة الجأش ، وحدة التصور ، والقابلية للرقى ، وحذق العلوم ، والثبات في الاعمال .

والثانية الصفراء . او المغولية وهي تعرف بصفرة اللون او سمته ، وبعلو الوجنتين ، وبروز الفك ، وصر العينين ، وقصر الانف والقامة ، وخفة شعر اللحية . ويغلب فيها التحفظ ، والحيلة ، وصلابة الارادة ، وقساوة القلب ، والبراعة في التقليد .

والثالثة السوداء . او الرنجية المتصف اصحابها بسواد البشرة ، وجمودة الشعر ، وكبر الانف ، وغلاظة الشفتين ، وصفرة الوجنتين ، وطول الايدي ، وعرض القدمين . ومن يمتازها الامانة ، وكون الحقد ، ومفاجأة من يسي . اليها بانتقام غير منتظر ، وقلة ما فيها من وسائل للرقى والتقدم .

والرابعة الحمراء . النحاسية ومنها الهنود الاميديون وعددهم لا يزيد على عشرة الاف ، يغلب فيهم الحذر ، والنفور السريع ، والصبر العجيب على احتمال المكاره والالام .

دور القراءة في الاستدلال على الاميال والاخلاق :

ومن الناس من يتولون القراءة منزلة الامرجة والسلالات في الاستدلال على الاميال والاخلاق ، وقد وضع بعض العلماء كتباً مطولة في هذا العلم ، تلعب

الى ما تدل عليه الملامح وسم وجهه من الاستعدادات وازعاج  
ويستند هؤلاء مذهبهم الى ما جاء في اقوال ابيكنا من عبارات ذهبت  
مذهب المثل منها قولهم : «الرجه مرآة القلب - الظاهر دليل الباطن - العين  
نافذة النفس - سيماؤهم في وجوههم»

على ان المعول عليه في هذا الموضوع هو ان الظواهر كثيراً ما تجتمع .  
وقد قيل عن داخل المرء انه صندوق مقفل لا مفتاح له الا التجربة . اجل  
قد تدل الملامح على بعض الاميال ، ولكن وراء ذلك العقل والارادة فانهما  
المحركان الاساسيان للاعمال ، وكل ما يتم بمنزل عنهما هو شيء بارد تافه لا قيمة  
له ولا شأن في عالم المعنويات .

كيف تكتسب العادات والتقاليد ؟ :

وتكتسب العادات والتقاليد تدريجياً منذ الصغر بان تتقلد عن طريق  
الحواس الى المحيطة حيث تنطبع بصورها واطوارها في صفحة الذهن ثم يأتي  
التكرار فيزيدها مكنتاً ورسوخاً .

والاكتساب وجوه كثيرة اخضعها « القدوة » وهذه قد تكون حسنة ،  
فما اذا كان الموضوع المقتردى به صالحاً مفيداً ، يعود الى عمل الخير ، ومجانبة  
الشر ، ورعاية الخير والواجب ، وتكون سيئة فيما اذا كان ذلك الموضوع  
ضاراً رديئاً ، يتود الى الشر ، والحاق الاذى بالانس ، والاستخفاف بالواجب .

ومنها « الشره » ، والبيئة ، والتعامل ، والقراءة » وهذه قد تكون  
مفيدة وضارة ، ولا يفوت اللبيب كيف ينبغي عليه ان يميز بين الامرين فيما  
اذا سعى الى ذلك تحت رقابة العقل ، اكتساباً للعادات الفاضلة والتقاليد الراقية .

ومن وجوه الاكتساب « التربية » باطوارها الثلاثة : البيتية ، والمدرسية ،  
والاجتماعية ، فانها في جميع ذلك اساس للعادات والتقاليد ، وعامل اولى  
لترقية المبادئ ، وتهذيب الاخلاق ، وتوسيع المعارف والمعلومات .

اما الاولى فهي بمثابة الركن من البناء ، فان حسنت كانت بشيرة بالبناء ، وان  
سالت كانت نذيرة بالهزس والشقاء ، والولد فيها يكون كالمرآة ينعكس فيه

كل ما يراه ولا سيما من تربيته . والمربون الاولون عمم الوالدون ، ولا خلاف في ان اللام الاثر الاعظم في التربية البيتية ، لان الولد ينشأ بين يديها ويتدبرع في كنفها تحت نظريها .

وتأتي بعدها التربية المدرسية وفيها يطبق العلم على العمل ، برعاية الاساتذة الذين يحلون محل الوالدين في تشييف النفس ، واصلاحها ، قد يكون نال تربيته البيتية من مفاسد تحل بمجال الفضيلة ، وتمس بصحة المبادئ ، وسمو الاخلاق . وقد قالوا : « اولا المرابي ما عرفت ربي - واملأوا المدارس تفرغ السجون - والامم التي لها ارقى المدارس هي ارقى الامم . »

وليس للتربية الاجتماعية مربون خصوصيون ونكتها تتم بالخطاطة ، والتامل ، والتأثر بالمحيط والبيئة ، ويسميا اللبنانيون « مدرسة الدهر » ومن امثالهم في ذلك : « ابنك لا تعلمه ، الدهر يعلمه » . اجل ان الدهر هو المعلم الاكبر لا تكمل لامرئ تربية ولا تأديب الا اذا عاركة ودوس عليه ، لانه ، وهو فرد في مجموع ، مضطر حكماً الى دخول هذه المدرسة ، التي هي العالم ، ومشاركة طلبتها ، وهم الناس على اختلاف طبقاتهم ، في تحصيل شتى المعلومات في كتاب لم تطبعه مطبعة ولم تحطه يد ، وهو كتاب عبر الازمان وطوارق الحدثان .

#### ركن العادات والتقاليد :

وللعادات والتقاليد ركن تستند اليه في الحكم على ما لها من حسن او رداة ومن فائدة او ضرر ، وما اشبه هذا الركن بيزان تعاضد به العادات والتقاليد وتراز يعرف ثقيلها من تافهها ، بل هو المحك الذي تستند به او تضرب عليه ليظهر صحيحها من زائفها .

ومن الناس من يجعل ركن هذه العادات والتقاليد « الذوق » الذي يميل بداهة الى كل جميل ، ولكن « الذوق » يختلف في الناس اختلافهم في البيئة ، والعافية ، والاحساس ، والتربية ، والمذهب ، فلا يصح اتخاذه سندا للحكم .

ومنهم من يجعل هذا الركن « حكم الجمهور » وهو زعم باطل لان هذا اي « حكم الجمهور » لا يسهل التوصل الى معرفته ، واذا سهل فقد يضل

كحكم الفرد ، ومفضلاً من ذلك ، فإن حكم جمهور في استحسان شيء لا يمكن ان يكون «نقطة حسنة» بل هو معلوله واسم لعل لا يصح ان يكون ركناً .

واقول السديد في هذا الشأن هو ان «الواجب الادبي» قد جعل بكثير من الصواب اصح ركن للعادات والتقاليد ، لانه في الكون ذلك النظام السرمدي الشامل المعقول الذي بأسر بالحير والمعروف ، وينمى عن الشر والمنكر ، بل هو ذلك الوازع الداخلي الذي يزن القيم بيزان العدل ، ويدعو الى الصلاح والفضيلة ، عملاً بناموس مفور على حنايا الصدور ، لا يقوى احد على محو حرف من حروفه ، ولا على تعديل اية كلمة من سلك كلماته .

فلى كل امة ان تستند الى هذا «الركن» المكين في الحكم على عاداتها وتقاليدها ، لتزهدا عن الشوائب والمغائب ، وتبدها عن الاسفاف والسفخ والحرافة والبدعة ، ويجعلها اخامة مقدسة بخطر الاخا . والمحبة والعدانة ، وهي العوامل التي يشيد عليها صرح الاخلاق ، ويرقي المحيط ، ويتسع المجال للاستفادة من ذخائر الكون ومكنوناته .

تطور العادات والتقاليد :

ومن لاحظ العادات والتقاليد في سياق الاجيال ، رآها خاضعة لسنة التطور والتبدل ، تبعاً لمقتضيات العصور والحوادث .

فمنها ما ينحط من ذاته ويضف تدريجاً الى ان يزول ويحل غيره محله .

ومنها ما تظنى عليه ظروف قاهرة ، تضطر المجتمع الى تركه ، واكثر ما يقع ذلك في الجلايات والمهاجرات اثر الحروب ، والثورات والجوائح الطبيعية ، التي لا تقوى يد الانسان على صدها او تخفيف تبعاتها .

ومن ثم يكتسب من تكون تلك حالهم عادات وتقاليدها جديدة تكون طوراً خيراً ، وتارة لضررهم ، واكثر ما يكون التطور الضار ، فيما اذا جاء عن طريق مستعمر ، يحاول استعباد البلاد بنحو عاداتها وتقاليدها ، واحلال غيرها محلها .

ففي مثل هذه الحال يتحتم على الشعب المستضعف ، الذي يحاول الاقرباء ، التهامه بمثل هذه الذرائع ، ان يستسك بعاداته وتقاليد ، لتظل دعامة لكيانه ، واساساً لاستقلاله وسلطانه .

ان التطور في العادات والتقاليد امر لا بد منه ، ولكن الفطنة توجب علينا بالآ نسامح بوقوعه الا بتزودة وحذر مع المراعاة لظروف الزمان والمكان والمحيط ، وما يترتب على التسامح به من نتائج وتبعات .

ان تبديل العادات صعب لكنه ليس بالمستحيل ، فيما اذا استهدف بقوة ارادة وطول اناة ، وكان ما يدور حوله على تلاؤم مع الحضارة الناشئة ، وملايسات الميثة ، والنهضة التقدمية والعلمية .

درر الزعامة في تطور العادات والتقاليد :

وقد كان للزعامة دورها المؤثر في تطور العادات والتقاليد ، فهي التي بنفوذها تساعد على تنقيتها من الشوائب ، ووضعها في شكل موافق لخير الجمهور ، هذا فيما اذا كانت مترفة القصد ، ذات رأي حقيق بالاتباع ، وكان الباعثون بها ممن لهم كلمة نافذة ، ورغبة بمحضة للخير ، وقد عرفوا بالوجدان الصحيح ، والضمير الحي والعقل الراجح ، واتصفوا بالوصانة والحكمة وحسن البصر في الامور ، واهتسوا بوقف زعامتهم على خدمة الوطن ونشر افضل ما تنتجه الحضارة العالمية بين ابرائه .

والزعامة اللبنانية الموروثة في خدمة العادات والتقاليد تاريخ حسن ، حافل بذكريات ومآثر كثيرة ، قام بها زعمائنا في الامس ، اصلاً لبعض ما كان يعثور عاداتنا وتقاليدنا من شوائب ومساوي .

وها نحن نذكر من ذلك على سبيل المثال : --

اولاً : ما أمر به الامير بشير الكبير عند وفاة اخيه الامير حسن من ترك بعض العادات المأتمية الكثيرة التكاليف ، التي كانت دارجة في جنازات الكبراء ، والاعتياض عنها بما هو اسهل منالاً واقل كلفةً وعناء

ثانياً : ما فعله المطران طويبا . عون مطران ابرشية بيروت ، من سنة

١٨٤٤ الى ١٨٧٠ رتبته على نساء. رشيته، في اننا. دورة رابوية قدم بها سنة ١٨٤٧، ان يتولى لباس الرأس المعروف بالطنطور، تخفيفاً لما كان يسببه هن من ازعاج ولا راجن من نفقات .

#### جبة لاملاح العادات والتقاليد :

ولقد تضافت الزعامة اليوم وتبدل حالها ولم يبقَ لها مثل نفوذها من قبل، ليرجى منها الاهتمام باصلاح ما اختل من تقاليدنا وعاداتنا، فيخلق بنا والحال ما ذكر ان زمني بتأليف جمعية ينخرط في ساكها نتيجة من مفكري الطوائف واصحاب الشأن تمدد الزعامة المستضعفة المتوارية، في درس تلك العادات والتقاليد، والاشارة باستبقا. ما يحسن منها، والاعراض عما يقبح وذلك بقرارات تتخذها بالاكثرية، بعد مناقشات قانونية، وآتين بالحكومة ورجال الدين على انفاذها، لان هذين المرجعين هما الان اكثر عينات البلاد وزعاماتها استطالة وقوة .

وليكن من اهداف هذه الجمعية ايضاً تقريب العادات والتقاليد بعضها من بعض، فيجعل مثلاً نظام واحد عند جميع الطوائف، للاجتماعات العائلية، وتقاليد الولادات، وحفلات التنصير، والتطبير، والحطبة، والاعراس، والمآتم، وينتقى زي واحد للباس تجمع عليه كل الطوائف، فلا نظل نحمل في الشارع ما يدل على عنعناتنا المذهبية، ونفتح قاعات بيوتنا لاستقبال الاصحاب من اي طائفة كانوا، فان ذلك بما يشد بيننا اواصر الاخاء والتفاهم، ويهود على مجموعنا ومدنيتنا بما يجوع الشلل ويوحد الاهداف والمنازع .

#### توحيد العادات والتقاليد :

اما ترى كيف ان عاداتنا وتقاليدنا ما زالت حتى اليوم فوضى، تختلف باختلاف الدرجات والمناطق والمذاهب، بما يحل التريب على النظر الينا بلاحظة الدهش، والظن بان بلادنا مسرح تمثل عليه مؤذجات لمختلف الاجناس والقوميات؟ نجد هاهنا فئة تمش بيتنا على اساليب محض اوربية، في اطعمتها وملابسها ومعاملاتها وطرائق تفكيرها .

وهناك فئة اخرى نصف اوربية ونصف لبنانية ، يريد بعضها الاولات من عاداته وتقاليدهِ الدريقة في القدم ، ولكن بعضها الآخر يسك بتلابيبها ويؤخر سيرها ويلجئها الى البقاء على حالها الى ما لا يراه الا الله .

وهناك فئة ثالثة ما زالت تعيش كما كان يعيش جدودنا من منتي عام ، لا يريدون عملاً هم فيه تجرّلاً ، ولا يرضون عن اساليبهم العتيقة بديلاً .

وما يؤسف له ان هذه الحالة كادت تزدي الى انقطاع الصلات الوطنية ، بين هذه الفئات ، لانها بينا اجتازت احداها مراحل بعيدة في مضار الحضارة والرقى ، وقفت الاخرى جامدة حيث كانت ، وهو ما يباعد بين ابناء الوطن الواحد ، بل يسكاد يفرقهم ايدي سباً .

فاذا رُبطت هذه العادات والتقاليد بعضها ببعض ، زادنا ربطها وحدة وقوة ، ولا يخفي ان التباين في عادات الشريعت بهم على الجفاء والمقاطعة والمدابرة ، وان التماثل والتشابه فيها يوجب بهم الى الموائمة والمزوجة في العواطف ، والاتحاد في القلوب والرغائب ، فالمرء من طبعه ينفر ممن يخالفه في مظاهره ، ويرغب في موالة من يشابهه فيها ، ويوافقه عليها ، وبقدر ازدياد المشابهة بين فريقين يزداد الولاء بينهما استحكاماً ، وبقدر ازدياد المخالفة تزداد النفرة استفحالاً .

ترى الى مَ يبقى هذا التباين باللباس في اسواقنا واجتماعاتنا - العنباز الى جانب ، والسراويل الاوربية الى جانب آخر - القبة الاوربية من جهة ، والقالب والكرفية من جهة اخرى .

اجل ليس ما يتنع ان تكون للبنانيين عامة مظاهر واحدة في اللباس يتمشون عليها جميعاً ، طالما ليس في هذا التوحيد ما يخالف العقائد المذهبية ، وانما هو تقليد اجتماعي وضع اكثره اولياء الامر ، منذ القديم ، وكانوا يبيزون فيه بعض الطوائف على بعض ، ليعبروا بينها الفواصل والفوارق ، زيادة في تباعدها وتمازجها ، ولتلا تتحد ضدهم ، وتقوى عليهم ، فكان مثلاً بعض الحكام يأمران بان يلبس ابنا المذهب الفلاني غير ما يلبسه ابنا المذهب

الاجر ، وداث لما عربوه من ان تعميرق بين ابا . رنية في الالباس يباء بين  
قلوبهم ، راجين استلال ذلك فيما هو من مصلحتهم الخاصة ، لا من مصلحة  
سواهم .

تقنين العادات والتقاليد الحسنة في المدارس :

وهناك طريقة اخرى لاصلاح العادات والتقاليد ، هي ان يلقتها النشر في  
المدارس ، ويؤدي عنها امتحاناً ، وذلك يستدعي وضع كتب مدرسية لمختلف  
درجات التعليم ، يبحث فيه الموضوع على شكل جديد ، يوافق روح المجتمع  
العالمي المصري ويلانم توعتنا الشرقية وبيننا اللبنانية ويناسب من الوجهة  
الاجتماعية مع مقدسات كل طائفة ، فيقترب اللبنانيون بذلك بعضهم من بعض  
وتنشابه احوالهم وتمازج عوادقهم ويصبحون امة موحدة المشارب ، والاذواق ،  
والمناحي ، تجمعها طراً تلك السة اللبنانية المريزة ، التي غماز بها ونحلها  
يفخر ، ونبذل النفس والنفيس للحفاظ عليها .

